التشكيل الدلالي: من التلقي إلى التأويل

د. محمد الهادي عطوي
قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة باجي مختار - عنابة

الملخَّص:

نعالج في هذه الدراسة موضوع التشكيل الدلالي في تحليل الخطاب انطلاقا من دعامتين مهمّتين هما **"التلقّي و "التاويل"** ، وذلك لفهم الأنماط التواصلية بين المتحاورين، ولتسليط الضوء بين الفردي (الملَكَة الفردية) والجماعي (الذاكرة الجماعية أو التناص) ، ولفهم ما يحصل بين والمبدع والمتلقي، من تفاوت، وفروق، وتجاوزات دلالية.

ومن ثمّ نحاول الإجابة عن الأسئلة الآتية:

كيف نضمن الانسجام الدلالي بين قصد المتكلم وتاويل المتلقي؟ وكيف تتم معالجة الدلالات المسكوت عنها ؟ وهل نحن مجبرون على فهم قصد المبدع كما ارتضاه أم نشكّل فهما انطلاقا من ملَكَاتنا التاويلية؟ وهل نفْهَمُ لنُؤَوِّلَ أم نؤوّل لنفْهَمَ الفروق والتَّفاوُت في الإدْراكِ والفهْمِ؟

الكلمات المفاتيح: التلقي – التاويل – تحليل الخطاب – التشكيل الدلالي - التناص.

" La formation sémantique : de la réception à l'interprétation. "

Résumé :

Dans cette étude ,nous examinons le thème de la formation sémantique dans l'analyse du discours en partant des deux important éléments qui sont **« la réception et l'interprétation »** .

Afin de comprendre les modes de communication entre les interlocuteurs. Et pour mettre en lumière les modalités de combinaisons entre ce qui relève de l'individuel(**compétence individuel**) et du collectif (**mémoire collective**) et ce qui appartient à l'instance émettrice et à l'instance réceptrice afin de comprendre le processus du dépassement, de distinction et d'intercompréhension.

Ainsi, nous tenterons de répondre aux interrogations suivantes :

Comment peut-on assurer une compatibilité sémantique entre l'intention de l'émetteur et l'interprétation du récepteur ?

Comment peut-on résoudre les significations lies au non-dit ?

Doit-on accéder aux sens ciblés par l'émetteur ? ou doit-on façonne des sens en partant de nos compétences interprétatives afin de s'adapter aux données sémantiques ?
Doit-on comprendre pour interpréter ou au contraire doit-on interpréter pour comprendre ?

Mots clés : Réception - Interprétation - analyse du discours – formation sémantique - intertextualité.

The Semantic formation :"From receiving to interpretation."

Abstruct :

In this study, we examine the subject of the semantic formation in discourse analysis based on two major elements that are **"receiving and interpretation "**; to understand the methods of communication between the interlocutors; and to highlight the individual (**individual Queen**) and collective (**the collective memory or intertextuality**), and to understand what is happening between the creator and the receiver, inequality and differences, and the excesses of tag.

Then, we try to answer the following questions:

How can we ensure semantic compatibility between the intention of the speaker and the interpretation of the receiver?
How can we solve the related meanings unsaid?
Should we access the target direction by the issuer? or should we shape the direction of our starting interpretative queens to adapt to the semantic data?
Should we understand to interpret or should we interpret to understand?

Key words:
Receiving - Interpretation - discourse analysis - forming semantic – intertextuality.

يعَالجُ البَحْثُ المسْأَلةَ الدَّلاَليَّةَ بتَتبُّعِ تكْوِينِهَا وتَشْكِيلِهَا فيِ مُخْتَلَفِ الخِطَابَاتِ، للإِبَانَة عَنْ جوْهرِ الدلائِلِ والمدْلُولاتِ في تحْلِيلِ الخِطَابِ، وذَلكَ بالإِفَادَةِ مِنْ عِلْمِ الدَّلاَلَةِ. والبحثُ الدلاليُّ منَ البُحُوثِ الصَّعْبَةِ في مجَالِ تَحليلِ الخِطَاب؛ لتعقُّدِ كَيْفِيَاتِ تَشَكُّلِ الدلالة وتنوُّعِها؛ ولكَثْرةِ الغُمُوضِ فيهَا وكثرةِ متَغيِّرَاتِهَا، فَهْوَ بحْثٌ مُتَّسِعُ الأرْجَاءِ يَتطلَّبُ الرويَّةَ والجَهْد والتُؤَدةَ؛ لأنّه مبْحَثٌ أصيلٌ يتقاطعُ معَ معَارفَ وعلومٍ كثيرةٍ، إذ إنَّهُ جوْهَرُ المسْأَلةِ الدَّلاَليَّة

في عَلاقَتِهَا بالفِكْرِ، والعِلْمِ، والتَّداوُلِ، والتَّواصُلِ، فقدْ بحثَ فيهِ الأصَوليونَ والفُقَهَاءُ، والمفسِّرونَ، وعلماءُ الكلامِ، والنُّقَادُ، والنُّحاةُ واللُّغويونَ، واللِّسَانِيونَ والبَلاغيونَ، والفلاسِفةُ، والمناطِقةُ وغيرهُم.

ومنْ ثمَّ تتحَدَّدُ إشْكَالِيَة البحْث: مَا دام المبْدِعُونَ مراتِبا، والمتَلَقُّون أصْنَافا، فَهَلْ الاسْتَقبالُ وحْدهُ كافٍ للإحَاطةُ بجَوَانِبِ الخطاب ومراجعه[1] أمْ تَلْزَمُهُ حمولة فكرية موغلة في الذاكرة الجماعية؟ وهلِ التوافقُ معَ القصْدِ شرْطٌ أمْ يَكْفِي التكيُّفُ معَ ما تَقْتَضِيهِ الدَّلالَةُ؟ إذا كان التَّأْويلُ عملا عَقْلِيًّا يتجاوزُ المقاصِدَ أحْيانًا؛ ليُحَمِّلَ النَّصَّ ما لا يَحْتَمل فهل نفْهَمُ لنُؤوِّلَ أم نؤوّل لنَفْهَمَ؟ وإذا اعتبرنا أنَّ الناتجَ الدلاليَّ تَشْكيلٌ واعٍ تَبْدأُ مُسَاءَلاتُه مُنْذُ لحْظَة البثِّ حتَّى زَمنِ التَّلَقِّي- وَهْوَ الفَضَاءُ الذي يعجُّ بالاختلافَاتِ والمفَارقَاتِ، والتَّوازُنَاتِ، والتَّفاوُتِ في الإدْراكِ والفهْمِ- فمتَى يبدأ البحْثُ في الدَّلالَةِ المقصودةِ(**وعي المبدع**)، والدلالةِ المكيَّفةِ(إدراك المتلقّي)، والتحوُّل الدلاليِّ (المتغيرات)، والارتدادِ إلى الذاكرةِ الجماعية والفردية (التناص)؟

إنَّ التَّأْوِيلَ عملٌ عَقْليٌ خالصٌ، وَالتَّفْكِيرَ في العَوالمِ والموجوداتِ نِسْبِيٌّ، والعَقْلُ بطبيعتِهِ التَّأَمُّلِيَّةِ يَتَطَلَّعُ إلى الحَقيقَةِ مِنْ خِلالِ فَرْزِ المَعْقُولاتِ، والتمكُّنِ من تمثُّلِ التَّخَيُّلاَتِ والمتخيَّلاتِ في تلكَ المعْقولاتِ. ومِنْ ثَمَّ تَمْنَحُ للخطَابَات مستويَاتٍ مُتَفَاوِتَةَ القِيمَةِ التي تَشْمُلُهُا تَجْرِبَةٌ مَا، حيثُ تنوُّعُ الدَّلالَاتِ وتَكَاثُفُهَا، ما يَجْعَلُ الخطابَ يَشِعُّ بِكَوْنٍ هَائِلٍ مِنَ العَلاَمَاتِ تُدْخِلُ الكَلاَمَ في المتعالي حيث يبرز الخفاء والتجلّي، وفي الخَفَاءِ حَيْثُ السُّكُوتُ عَن المقَاصِدِ، ويكونُ الاستدْلالُ علَيْها بطبيعةِ القَرائنِ والأحْوالِ.

1 – الخطاب :

يتأرجح موضوع التشكيل بين مفهومين مهمّين في البحث الدلالي الحديث هما التلقي والتأويل، حيث مقصد الباث واختياراته في وضع

السَّنن(**code**) المطلوب، سواء أسكت عنه أم صرّح به وحيث وعي المتلقي وإدراكه لتلك المدلولات، وهنا تكمن فعالية الموضوع وخطورته، إذ لا بدّ من الفهم والضبط لتحديد أسرار الدّوال والمدلولات وكيفيات تكوينها، ونموّها واعتمالها في الضمائر المختلفة وتقبّلها في العقول المتفاوتة.

ومصدر البحث في ذلك كلّه هو **الخطاب** سواء أكان ذلك كلاما، أم صورة، أم مسرحية، أم فِيلمًا (**film**) أم إشهارا، أم أدبًا باختلاف أجناسه.

الخطاب **حدث كلامي تواصلي دال**؛ لأنَّه يكشف عن محتويات عديدة تترجم التجربة الإنسانية في كثير من حدودها. وهو حدث يشمل مجموع المكوّنات* التي تعبّر عن مختلف المعاني، إذ تشكّل المتواليات الكلامية والحوارية قدرا من الملفوظات التي تسهم في تشكيل وحدة اتّصال بإمكانها أن ترتبط بظروف إنتاجها[2].

وقد اختلف الدارسون والباحثون في تحديد هذا المفهوم فنشأ عن ذلك تقديم مصطلحات مختلفة نابعة من تعدّد منطلقاتهم الفكرية ومراجعهم المنهجية، فقد قدّمه اللسانيون على أنّه اللغة والكلام والإنجاز، واعتبره الأسلوبيون الأسلوب، أي إنّ الخطاب رسالة تحملها العلاقات الموجودة بين العناصر اللغوية، أي الأسلوب في مستوى النص أو الكلام[3]. واصطلح عليه النصانيون النص، أي مدوَّنة نصيَّة تُحْمَل على الحدث الكلامي المُنجَز، ذلك أنَّ النصَّ هو تمثيل للكلام المسند لمصادر متباينة للمتلفّظ[4]، ومن ثمَّ يمكن اعتبار النص تسجيلا لفظيا للحدث التواصلي[5] الملفوظ حتَّى وإن أقصيت كثير من ملامحه الصوتية المتعلّقة بظروف إنتاجه النفسية والعاطفية، كالتنغيم، وعلامات التعجّب، والحزن، والوقف، وإيقاعات صوتية أخرى ملازمة للملفوظ، ومن ثمّ تكون المقايسة اللفظية والنصيّة غير متطابقة وغير مكتملة بصفة كليّة. كما أطلق عليه النحاة بالمتوالية الجملية، وهكذا، وهذا

التنوّع والاختلاف يجعل الخطاب متضمّنا لمعنى اللغة التي تحدّد نمط التواصل عبر الخطابات، كالخطاب الأدبي، والفلسفي، والعلمي، والديني، والإداري، والسياسي، ما يجعل الحدث اللساني متلبسا بطبيعة موضوعه ليصنع معايير تواصله، ممَّا يجعله شبكة تقاطع الدوال بالمدلولات، ومجموع علائق بعضها ببعض، ومن ذلك كلّه تتكوّن "البنية النوعية للنص، وهي ذاتها أسلوبه"(6).

وبذلك تتعدّد دلالات الخطاب لتأتي في أشكال متباينة، يمكن رصدهما في شكلين أساسين:

أ – أشكال صريحة ذات دلالة معجمية مباشرة ومدركة من دون تأوّل.

ب– أشكال متأوّلة: أي التي تتطلَّب عملا تأويليا بفتق التلميحات والإيماءات والإشارات، بالاستعانة بمنبهات النص ومؤشرات سياقه الكامنة.

2 – التلقـــيّ:

التلقي هو إعادة الإنتاج، والتكييف، والاستيعاب، والتقييم النقدي لنتاج أدبي أو لعناصره بإدماجه في علاقات أوسع.. أي إنّه عملية فاعلة في الفهم والتقييم، وإعادة الإنتاج الأدبي(7)، وقد عبّر عن هذا المفهوم بعدّة مصطلحات كالتلقي، والاستقبال، واستجابة القارئ، والقراءة، ويرى محمد عزام أنّ من بين أسباب ظهور نظرية التلقي هو النزاع بين المناهج النقدية الحداثية المعروفة بمناهج ما بعد البنوية، كالسيميائيات، والتأويلية والتلقي(8).

فبعدما بسط المبدع سلطته على خطاباته ونصوصه رهنا من الزمن لملكيته لها تحوّلت هذه السلطة للنصّ نفسه، كونه الوسيط بين الباث والمتلقي هذا العرش الذي سكت عن كثير من الأسرار، منها ما قالها المبدع، ومنها ما وصل إليها المتلقّي، وسرعان ما يعتلي المتقبّل هذا السلطان، فيمتلك كلّ

شيء، فهو يستقبل هذه الخطابات ويعطيها دلالات جديدة، فينفخ فيها من فلسفته ورؤاه وتصوّراته، مستعينا بوعيه وإدراكه، ومهتديا بنور تحليله وتأويله، ولكنّه بهذا الصنيع قد يعطي الخطاب – أو النص – معطى دلاليا جديدا قد يكون أكبر من مقصد المبدع وأرقى، وهذا دليل على أنَّ هذا المثلّث – الباث، والخطاب، والمتلقي[9] – يتميّز بالفاعلية والتحوّل، فإن كان إنتاج الخطاب قد تمّ وفق فاعلية تحويلية متغيّرة، فلا بدّ أن يحافظ على هذا المكتسب وما خفي دونه، ولابدّ أن يُدرَك باعتباره تحويلا، وتُفهم متغيراته، ويُستنطق كلّ ما سُكت عنه.

3 – التأويـــل:

مصطلح التأويل قديم النشأة والظهور يعرف عند اليونانيين بالهرمينوطيقا: **herméneutique** مشتقّ من **hermeneia** ، أي: فن التأويل.

ويمكن أن تمثّل الهرمينوطيقا نوعا معينا من الفلسفة التي تتوزّع على ثلاثة مستويات: المنهجي (الميتودولوجي)، والمعرفي (الابستمولوجي)، والفلسفي[10].

يتعلّق موضوع **التأويل** بالإطار المنهجي لطرائق فهم الخطابات والنصوص، فأمكن اعتباره منهجا يتوخّى البحث عن المعنى وتفسيره، وإجلاء إبهامه وغموضه، أو ما خفي من مدلولاته المتوارية في ثنايا النصوص.

والتأويل مأخوذ من المصطلح الفلسفي، وقد وضع في بادئ الأمر باعتباره منهجا لتفسير النصوص الدينية، إذ يوظّف التأويل لدلالة على نمط فكري يحدّد طرائق التفكير الإنساني، أو النظر العقلي المتعلق بالمناهج التأويلية، والذي يهدف إلى تأسيسها وتبريرها، أي البحث في المبادئ العامة لمجال البحث في مجال تفكيك الرموز[11].

إنَّ فعالية الخطاب تتجلّى في طبيعة القراءة، أي: التفاعل بين الخطاب والمتلقي؛ لأنَّ عملية إنتاج الدلالة يشترك فيها النص باعتباره أداة مُنتجة متغيّرة، ويشترك فيها المتلقي باعتباره موجّها للخطاب، بل عليه أن يتحرّك من مجال التقبّل الذوقي إلى المجال التحليلي والتأويلي. "فكلّ خطاب يقول شيئا بخصوص شيء معيّن يؤوّل في نهاية الأمر إلى قول شيء آخر. إن **الكلمة الدالة إذن تأويل**"[12]، فما بالك إذا قام الخطاب على التعدّد الدلالي واختلافه؟

والتأويل عمل العقل يخضع للتجربة في النظر، والتدبّر، والاجتهاد، والرأي من خلال التفكير العميق، فهو نشاط فكري يطلب المعاني البعيدة المتوارية في صلب الموضوعات، ويستدعي الفهم، ثمّ يحوّله في الآن نفسه إلى آلية للتأويل، ومن ثمّ انتقل هذا المفهوم (التأويل) إلى المعارف الأخرى، واتّسعت حدوده التطبيقية ليشمل العلوم الإنسانية كالتاريخ، وعلم الاجتماع، والانثربولوجيا، وفلسفة الجمال، والأدب، والنقد الأدبي، والتداولية، والسيميائية، وغيرها.

4 – الفهم والتأويـــل:

الفهم والتأويل عنصران متعالقان؛ لأنَّ تحقيق الفهم لمعنى الخطاب لا يكون نهائيا، بل يتحقّق في مرحلتين، مرحلة الفهم الأوّلي، وهي مرحلة تمهيدية استفزازية تخطّ رسومها لإثارة الفضول وتنشيط المفكّرة في البحث عن المراد، ومرحلة الفهم الثاني* التي يعقُبها التأويل، أي تعميق الفهم، ويتمّ ذلك بالاستعانة بالسياق لتوضيح الدلالات الضمنية التي تومئ بها عناصر لسانية وغير لسانية[13].

فالباث يقول أفكارا، والخطاب يتضمّن تلك الأفكار بقيم متفاوتة، والمتلقي يفهمها بقيمة غير متوازنة قد تكون في مستوى الإدراك والقصد

وقد تكون دونه بحسب علمه ومعرفته وثقافته ومخزونه الفكري. ومن ثمَّ وجب البحث في هذه الدعائم الثلاثة (المخاطِب والمخاطَب، والخطاب) لمحاولة الفهم والإفهام، والبيان والتبيين.

وتبقى محاولة فهم الجانب النفسي للمخاطب يبقى من أصعب العمليات الإدراكية؛ لأنه "جانب غامض وعميق من الحياة النفسية للإنسان، يتّصل أساسا بطرق تفاعله الذهني والغريزي مع العالم الآخر"[14].

وسواء أتعلّق الفهم بالعلامات اللسانية أم بعلامات غير لسانية، كالإشارة والنصبة والحال وغيرها، ألا ترى أنّ الجاحظ في كتابه "**البيان والتبيين**" أمعن النظر في مثل هذه مسألة ورأى أنّ أصل الفهم والإفهام هو البيان والتبيين، فبأيّ شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع، وأنّ المعاني خلاف الألفاظ مبسوطة إلى غير غاية ، ممتدة إلى غير نهاية، وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ خمسة أشياء: اللفظ، والإشارة، والعقد، والخطّ، والحال التي تسمّى نصبة[15].

إنّ تعميق الفهم يتيح لنا بعدا تأويليا، أو بما يسمّى الفهم التأويلي، إذ "لا يحاول المؤوّل، وبحضور نص ما، تطبيق معيار عام لحالة خاصة، وإنّما ينصب اهتمامه على الكشف عن دلالة أصلية متوارية خلف المكتوب المراد معالجته"[16]، والمعنى أن البحث في الدلالة يكون في الجوانب الخفية التي تثير الفضول من أجل تعميق الفهم؛ لذلك تبقى مسألة الفهم نسبية؛ لأنّه – كما يرى غادمير– إدراك للمعنى أو الدلالة أو القصد من المتداول إلينا، بمعنى آخر هو إدراك القيمة الضمنية للبراهين المقدّمة[17]، فإذا كان التأويل يحقّق الفهم، وكان الفهم عماد التأويل، فأيّهما يوصل إلى الآخر؟ ومن ثمّ فبالبحث في المسألة الدلالية يوكل بالدرجة الأولى إلى الفهم، ومن ثمّ يتحوّل هذا المحور إلى ضرب من النظر، والتحقيق، والجدل أشبه ما يكون

بالمعجزة، ولذلك فالبحث التأويلي – حسب غادمير– هو الكشف عن الفهم وليس الكشف عن التواصل العجيب، والفهم هو المشاركة في القصد الجمعي[18]. وهو دليل على ضرورة الانسجام مع كلام الآخر الذي قد يتضمّن شفرات ورسائل مختلفة الدلالة والمنطق، هذا التنوع قد يتيح فرصة واضحة لتعدّد في الفهم والتأول، ويقوّي الافتراضات ولاحتمالات في التشكيل الدلالي، ومن هنا وجب التكيّف مع المعطى الدلالي على الصورة التي هي أليق، فيتجلّى لنا من بين الاحتمالات احتمال أقوى هيمنة على الاستدلال، وأكثر منطقا وإقناعا، وإن بعد عن المقصود من دلالة المبدع.

يرتبط الفهم، إذن، **بوعي الدلالة**، إلاّ أنّ التمثلات في مستوى الفكر تكمن في طبيعة تمثيل المتصورات الذهنية التي لا بدّ أن تتشكّل بصورة واعية، لأنّ انعدام الوعي يفضي بنتيجة سلبية حتمية في المجال التواصلي والتخاطبي، ومن ثمّ فهو يؤثّر على عملية تثبيت الفهم في تحصيل التصوّرات الذهنية وتمثّلها، ومن ذلك يكون توجيه المعرفة أهي حدسية أصلها الحساسية، أم خطابية أصلها الفهم[19]؛ لأنّ استقبال الخطابات لا بدّ أن يحظى بشيء من الوعي والإدراك، ليس بغرض الفهم فحسب، بل لتعميق قدرتنا المعرفية والفكرية لتحقيق الفهم والإفهام بإثبات الأدلة المناسبة، فالفكر يشتغل بوساطة الدليل باعتباره وسيطا للتواصل[20]، ولكنّه في الوقت نفسه بحاجة إلى تمثّل عميق وراق، أي أن يتحوّل إلى فكر تأويلي.

سُئل جحا: متى يوم القيامة؟ فقال: وأيّ قيامة تعنون؟ فقالوا: وهل القيامة متعدّدة؟ فأجابهم: نعم، إذا ماتت امرأتي فتلك القيامة الصغرى، وإذا مِتُّ فتلك القيامة الكبرى"[21]، إنّ القول في ظاهره الأوّلي يبدو ضربا من الطرف والحيلة، وهذا أغلب ما عرف به جحا في الحكايات العربية، وقد يخفي هذا القول إشارات أخرى منها الإشارة النفسية، هو الإحساس بالمنية

عن بعد وعن قرب، ثمَّ التلويح بإشارة إيمانية، وهي الحقيقة الغيبية الحتمية التي سيصير إليها كلّ امرئ، لأنّ الحقيقة النفسية تثبت ذلك فموت زوجه تعني قيامة بالنسبة إليه، وكأنّه موته هو، وهنا قد يعني موت اللذة في الحياة، والحياة تخبر بدورها عن هذا الشعور المؤلم، وقد نتحسّس إشارة أخرى تثبت ثقافة جحا تتمثل في البعد التناصي الذي امتصّه من المرجع الديني "**من مات فقد قامت قيامته**". والظاهر أنَّ مثل هذه الدلالة تحصل فيما يعرف بباب التشتّت الدلالي[22]، أي: إنَّ الدلالة تصير شتاتا متعدّدا يرتبط بالانفتاح البنوي على السياق بطبيعة العوامل المؤثّرة في تشييده، وهي: الزمان والمعرفة والاستعمال.

إنّها مسألة معقّدة ومشوّقة في الوقت نفسه؛ لأنّ آلية التخاطب تفرض التوقّعات والترقّبات في استقبال الخطاب، كما تحتمل المفاجآت والاستفزازات التي تصنع مجالا للتدبّر والتأمّل والتحليل للوصول إلى المعطى الدلالي المثالي والذي يحقّق هدفه التداولي من خلال التمثّلات الواعية والعميقة. فقد يحتمل موضوع الخطاب نظاما ثريا ديناميا من الأدلة، أي يمكن أن ينتقل من البساطة إلى التركيب عندما تحتمل الأدلة أدلة أخرى إضافية، إلاّ أنّ فهم هذا التحوّل قد يختلف بين المتلقي العادي وبين محلّل الخطاب؛ لأنّ آلة الإدراك عند الثاني مزوّدة بقوانين إضافية تمكّنه من تطويع الدلالة على الوجه المعتبر في حدود التأويل "قصد تسنين عملية التواصل وإنتاج الدلالة وتصويغ التمثيل"[23]. ولكنّ السؤال: هل منتج الخطاب يفرض علينا فهم تلك الترقبات والتوقّعات لبلوغ مقاصده الدلالية؟ بمعنى آخر: هل يضع في الحسبان فكر المتلقي وإدراكاته؟ أم ينشأ خطابه لقصد ما ولا همّ له في احتمالات تعدّد الفهم لدى متقبّله ورؤاه التأويلية؟

وهكذا تبقى مسألة الفهم والتأويل نسبية؛ لأنَّ إدراك المعنى أو الدلالة يبقى مرتبطا بمدى فاعلية الإدراك والاستجابة، والقدرة على الإحاطة بالمحتويات العامة لمضمون الخطاب، إذ تعمل آلية القياس على جعل الفهم ينبثق من خلال الاستقراء، فتكون نتائجه استنباطية، كأن تقوم على جملة الاستدلالات التي تفضي بمنطقية الوصول إلى المعنى المرجو في عملية التأويل.

ويبقى التعامل مع الخطاب باعتباره قضية قابلة للتحليل؛ لانفتاحه على الدلالات الممكنة المرتبطة بوعينا الفردي والجماعي، وبمستوى التعامل الفكري والجدلي مع عوالم النص الظاهرة والخفيّة، أي إنَّنا مجبرون على التحرّر والانعتاق من قيود التبعية والتقليد في الممارسات النصيّة، وهو ما يلزمنا بالتكيّف مع المعطيات الدلالية المتجدّدة والمتغيّرة؛ لأنَّ آليتها التطوّرية تجبرها على تخيير محتوياتها ومضامينها وفق ما تقترحه الأفعال الجديدة؛ ليخرجها من معيار ويدخلها في معيار جديد، وهذا التعاقب على النمط الفكري ينتج النمط الفلسفي والعقلي الراهن للتعبير عن التجربة في ثوبها المتجدّد والمعاصر.

الدلالـــة والسيـــاق:

تأتي علاقة الدلالة بالسياق بكون الخطاب دوالا تتفاعل في المدلولات وفق مؤثرات مقامية ومؤثرات سياقية تعمل على تفعيل الأفعال الكلامية على نحو يكسبها القدرة على التكاثف والتوالد الدلالي بشكل دينامي وتطوّري، إذ لا يمكن تحديد دلالات الملفوظات في لحظات إنتاجها أو بعدها بدقّة إلاّ بمعرفة سياقها الذي أوجدها، فمعرفته ضرورية لتحديد متغيّرات كلّ فعل كلامي؛ لأنّه "أثر أفعال اللغة السابقة، وسبب أفعال اللغة اللاحقة"[24]. فالتأويل توسيع للدلالة وتوليد لها، أي هو تجاوز للدلالة للأصلية بمنحه علامات

جديدة محتملة يفرضها سياق ما، إذ تتأثر الكلمات والعبارات بالسياقات التي ترد فيها، وتجعل مدلولاتها مرهونة بها وفقا لاستعمالها وتداولها، ومن ثمَّ يكون التعدّد في معاني الكلمات بمدى الحياة التي يتيحها لها السياق، " **فالكلمات ليست لها معان، وإنَّما لها استعمالات**"[25]، وأنَّ هذه الاستعمالات تخرج الكلمات من السكون إلى الحركة وتبعث فيها روحا جديدة غير التي ألفتها، وهو مظهر تغيّرها وتطوّرها تبعا لظروفها الجديدة. ومثل ذلك ما ورد في الآية "**يا أيّها الذين آمنوا ادخلوا في السَّلْمِ كافة ولا تتّبعوا خطوات الشيطان إنّه لكم عدوّ مبين ، فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البيّنات فاعلموا أنّ الله عزيزٌ حكيم**"[26]. وقرئت **السَّلْمِ** بكسر السين **(السِّلْم)** وبفتحها **(السَّلْمِ)** وورد في تهذيب اللغة للأزهري: السَّلْم والسِّلْم: الصلح[27]، وهو المعنى الذي يتداوله اللغويون المعاصرون للدلالة على الأمن والسلام من الحرب، إلاَّ أنَّ السياق يجعلها شيئا آخر، فقد أخرج ابن جرير عن عكرمة قال : قال عبد الله بن سلام وعصبة من اليهود[28]: يا رسول الله: يوم السبت نعظّمه، فدعْنا فلنسبت فيه، وإنّ التوراة كتاب الله فدَعْنا نَقُمْ بها الليل. فأنزلت هذه الآية[29]: "يا أيّها الذين آمنوا ادخلوا في السِّلْم كافة"، على أن المراد بها بإجماع المفسّرين **الإسلام**. أي: الدخول في الإسلام بكلّ شرائعه، أو أن يدخلوا كافة في الإسلام؛ لأنّه دين العالمين، وقد أوّل بعض المجتهدين من المفسّرين لِمَ عبَّر عن الإسلام بالسَّلم لا بالإسلام، قال؛ لأنَّه من أسلم وجهه لله وهو محسن فهو في سلم مع الله عزّ وجلَّ، ومن صدّ عنه وأدبر فهو في حرب مع الله سبحانه وتعالى.

ولذلك اهتمّ علم الدلالة بالسياق باعتباره أداة إجرائية مهمَّة لتحديد المعاني، ويكاد معظم علماء الدلالة يتّفقون على أنَّ للكلمات معاني قاعدية وأخرى سياقية[30].

ويتطوّر السياق مع تطوّر الخطاب، إذ يغيّر كلّ فعل كلامي لغة السياق عندما تستجيب لمؤثرات السياق والكلام؛ فهو دال على المعاني المطروحة في الفكر الإنساني سواء أكان سياقا لغويا أم عاطفيا أم ثقافيا. وإن كان الأهمَّ المتحصّل منها هو السياق اللغوي؛ لأنّه أكثر طواعية للملاحظة والتحليل(31)، وبه تتحقق عملية الفهم في تأويل الدلالات.

أمَّا دينامية السياق فتتحقّق بفضل متوالية أحوال اللفظ التي توجّه مجرى أحداث اللفظ، بمعنى أنّ السياقات "هي اتّجاهات مجاري الأحداث"(32)، وبهذا التحوّل تتباين استعمالات الكلمات والعبارات في السياقات، فبعضها قد يتلاءم مع سياق ما، ولا يتلاءم في سياق آخر بسبب اختلاف المحتوى العاطفي، والمؤثرات، والظروف والأحوال، وعدم تماثلها لحظة التخاطب، ومن ثمَّ يتكوَّن عنصر المفاجأة في الفهم، والتقبّل، وقد يحدث غير المتوقّع كما ورد في خبر الأصمعي، أنَّه قال(33):

لمَّا ارتدَّ الناس أتى رجل من بني سُليم أبا بكر – رضي الله تعالى عنه– فقال: أعطني سيفا أقاتل به، فأعطاه. فقاتل به المسلمين.

فقال خُفاف:

لِمَ تَأْخُذُون سِلاَحَه لِقِتَالِهِ ولـذاكُمُ عِنْدَ الإلـهِ إثَـامُ

لا دينُكُمْ ديـني ولا أَنَا كافِـرٌ حتَّى يزولَ إلى صراة شَمَامُ

فلمَّا تحوّل هذا الفعل المألوف إلى ما يناقضه حدثت المفاجأة، وتجسّد الاستفزاز بقوّة؛ لأنّ السياق كله يوحي بأنَّ الرجل سيكون محاربا في صفّ المسلمين، ولكنّه قاتلهم، فتكوّنت الصدمة؛ لأنَّ المتوقّع لم يَعدْ متوقّعا، بل صار غريبا مفاجئا، والمعنى الذي عبّر به عن الغرابة تجلّى في عبارة " **فقاتل به المسلمين** " من مجمل الكلام الوارد.

وفي البيان والتبيين في باب فيمن يخطأ في طلب المعنى، كما في الأسلوب الآتـــي:

قال رجل لابنه: "إذا أردت أن تعرف عيبك فخاصم شيخا من قدماء جيرانك. قال: يا أبت لو كنتُ إذا خاصمت جاري لم يعرف عيبي غيري كان ذلك رأيا، ولكنّ جاري لا يعرّفني عيبي حتَّى يعرّفه عدوِّي. فلم يفهم أن أباه نهاه ولم يأمرْه[34].

فالنتيجة، إذن، أنَّ فهم المعاني لا يحصل بالمفردات، ولا بالعبارات الاعتيادية، وإنَّما تحصل بوضعها في مقامها الذي يدلّ على متغيراتها وانحرافاتها الجديدة.

التداوليـــة والتأويـــل:

لعلّ أهم المهام التي تؤديها التداولية في مجال تحليل الخطابات هو تصيير الموضوعات وتحويلها إلى أفعال منجزة، فهي بذلك تسعى إلى وضع قواعد للتأويل الدلالي لكلّ مقولة من مقولات البنية التركيبية، وقد تسمّى هذه العملية أيضا بالتأويل التداولي[35]، لأنّ الغاية هي الوصول إلى المعنى المقصود أو المتكيّف معه. وحتّى تكون هذه الإنجازات ناجحة عمليا لا بدّ أن تحظى بفهم حدود الملفوظات وسياقات إنتاجها، وهو دليل على ارتباطها بالواقع؛ لأنّ الواقع هو المجال الأوحد للتواصل الإنساني على اختلاف صوره وأنماطه، فهو الذي يجمع الجوانب الخفيّة والظاهرة، والعوالم السيكولوجية، والعقدية، وأنّ السياق قد يترجم المقاصد والدلالات بكيفيات مختلفة مباشرة وغير مباشرة، هذا "**السياق الواقعي**"[36] هو الذي يتّفق فيه منجزو الخطاب في "الآن"، أي هو اشتراك آني في الأحداث، وهو دليل على التواضع والاتّفاق في بنية الملفوظ، وقد تعدل خواص الآن عن أصلها لتدخل في مجرى تواصلي مستحدث، قد يكون متخيّلا ولكنه لا ينفصل عن الواقع

يجعل صورة إنجازه غير اعتيادية، ومن ثمَّ يضحى السياق متغيّرة جديدة ترمز إلى دلالات مختلفة القيمة تتفاوت بتفاوت المتحاورين والمتخاطبين.

السيـــاق والتأويـــل:

يتجلّى أثر السياق في عملية الإبداع والتخاطب في استجلاء التفاعل الدلالي من عدّة جهات: من جهة المتكلّم، ومن جهة المتلقي، ومن جهة الخطاب، ومن جهة محلّل الخطاب. أي: أنّ استقبال الخطاب يمرّ وفق عملية التلقي عبر مراحل متفاوتة ومتباينة ترجع إلى جهة التكوين المعرفي، وخبرة المتلقّين وأصنافهم، ومن ثمَّ فإنَّ التقبّل الجيّد يحظى بإمكانات الفهم والتأويل في ظلّ التنوّع السياقي، فهو يرتبط تداوليا بمفهوم الملاءمة باعتباره عقدا تواصليا في عملية التخاطب يجعله معطى تداوليا يفرض الانصهار في موضوع الحوار[37]. ولكنّ السياقات كثيرة ومتعدّدة، ومن ذلك السياق الذي يحيل على التاريخ، حيث المرجع الذي يغطّي الظروف العامة من خلال الارتداد إلى الذاكرة الجماعية والفردية، أو السياق المقامي الذي يشكّل جزءا من البواعث الاجتماعية القادرة على تفسير بعض المضامين الغامضة[38].

أمَّا السياق التفاعلي فيتعلّق بالمتحاورين، ويتجلّى أثره في إدراك المتحاورين للموضوع، ومدى انسجامهم مع المعطيات الدلالية الممكنة والمقصودة. ولا يحلّل الكلام بمعزل عن سياقه؛ لأنّ المعلومات التي تظهر فيه وتتفاعل عبره تجعل السياق متغيّرا ديناميا. فالسياق الذي يحلّل ضمنه الكلام هو ما تضمّه ذاكرة العمل القصير أثناء التأويل، وهو يتكوّن من " معلومات مستخرجة من الذاكرة البعيدة المدى، ومن ذاكرة متوسطة المدى، وأخرى مستمدّة من المحيط الفيزيقي، أي: المعلومات التصوّرية المنبثقة عن الوضع التواصلي، إنّ المبدأ الذي يسمح باختيار التأويل المناسب هو الملاءمة"[39].

ولذلك فإنّ السياق يسهم في التحكّم في عملية الفهم، ومن ثمّ يكون قادرا على منح الخاصية التأويلية للخطاب، فهو لا يقدّم للكلام المعنى فحسب، بل يؤشّر مع ذلك إلى وجود دلالات أخرى، وذلك بتضمّنه "التوقّعات، والترقّبات، والفرضيات والعقائد، والذكريات، والمسبقات الثقافية، وافتراضات حول الحالة الذهنية للمتكلّم، كما يمكن توسيع السياق بالرجوع إلى الخلف بإضافة بعض الفرضيات المستعملة أو المشتقّة من عمليات الاستقراء السابقة"[40]، ومعناه أنّ السياق يتضمّن سياقات أخرى فالفهم الجيّد للرسائل اللسانية وغير اللسانية لا يقتصر على اللغة فحسب؛ لأنّه لا يكون كافيا، ومن ثمَّ كان دور السياق شرطا محوريا لتحقيق الفهم.

وعلى العموم يبقى التشكيل الدلالي من القضايا التي تعتمل في رقعة الأنفس بطريقة ما، وبتصوّرات خاصة، تتحوّل عبرها الدوال والمدلولات بكيفية غريبة، كما يبقى تقبّل هذه الدلالات أصعب؛ لأنّه بحاجة إمّا إلى تكيّف معها لإدراك القصد، وإمّا إلى تكوين دلالي مستحدث ومتأوَّل يتوافق مع الطبيعة الإدراكية للموضوع. ويبقى فهمها وإدراكها صعبا، ولكنه ليس مستحيلا، إذ ليس من السَّهل جدًّا دراستها ببساطة ويسر؛ لأنّه من الصَّعب جدَّ تفسير العواطف، والأفكار، والمتصوّرات، والأحكام، فتفجير الرموز والعلامات يتطلّب عمقا وفطنة لفهم المعاني وتطويعها.

وحتَّى لا يبقى هذا الكلام النظري مجرّد تلويح وأساليب لغوية مثيرة من غير توضيح أو إفهام، فإنّنا نعِدُ القارئ بتقديم موضوع تطبيقي على مدونة أدبية نستثمر من خلالها تلك المقولات النظرية، ونقدّم النتائج المرجوّة من هذا الموضوع الطريف.

الهوامش والإحالات:

1) نعني بها المراجع الثقافيَّةِ، والفلسفيَّةِ، والتاريخيَّةِ، والدينيَّةِ، والنفسيَّةِ، والاجتماعيَّةِ، وغيرِهَا.

* يعني: اللغة والأخيلة، والصور والأفكار.

2) دومينيك مونقانو، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، ص37.

3) عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، الدار العربية للكتاب، ط3، 1982، ص91.

4) المرجع السابق، ص35.

5) ج. براون، تحليل الخطاب، ص11.

6) عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، الدار العربية للكتاب، ط3، 1982، ص90.

7) محمد عزام، التلقي والتأويل: بيان سلطة القارئ في الأدب، دار الينابيع، دمشق: سورية، ط1،2007، ص78.

8) المرجع السابق، التلقي والتأويل، ص80.

9) يمكن الاصطلاح على المخاطِب مقابل الباث، أو المتكلّم ، أو المبدع، والخطاب: مقابل النص، والمخاطَب مقابل المتقبّل أو المتلقّي أو المُستقبل.

10) نبيهة قارة، الفلسفة والتأويل، دار الطليعة، بيروت: لبنان، ط1، 1998، ص5.

11) المرجع نفسه، ص5.

12) م ن، ص5.

- يتأسس التأويل على بنية الفهم التي تنشطر شطرين: الفهم القبلي والفهم البعدي، فالقبلي يمكن وصفه بالفهم الأولي الذي يساعدنا عل تمثّل سطحي للمعطى الدلالي ويكون مقدّمة لمجموع الترقبات والافتراضات الدلالية التي يحتملها الكلام، و الفهم البعدي ضرورة حتمية للوصول إلى الدلالة المتوارية أو الأكثر خفاء في التجربة، أي إن عملية التأويل تأتي بعد مرحلة تشكّل الفهم الأوّلي للخطاب، ويتمّ التأويل بعد حدوث التأوّل الجزئي للكلام انطلاقا من المكوّنات الداخلية أي داخل التأويل اللساني، وتأويل تداولي بالاستناد إلى المراجع التي تحيل إلى أشياء العالم. ينظر: عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغيّر، ص23،24.

13) عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغيّر، ص 23، 33.

14) يوسف الإدريسي، الخيال والمتخيّل في الفلسفة والنقد الحديثين،مطبعة النجاح الجديدة، ط1، 2005، ص149.

15) الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر) البيان والتبيين، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، ط7، 1998، 76/1.

16) هانس غيورغ غادمير، فلسفة التأويل، الأصول المبادئ الأهداف، تر: محمد شوقي الزين، منشورات الاختلاف الجزائر – المركز الثقافي العربي، المغرب، ط2، 2006، ص39.

17) المرجع نفسه، ص42.

(18) م ن، ص42.

19) طائع الحداوي، سيميائيات التأويل: الإنتاج ومنطق الدلالة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء: المغرب، ط1، 2006، ص12.

20) المرجع نفسه، ص12.

21) أخبار جحا، تح: عبد الستّار أحمد فراج، مكتبة مصر، ط4، د.ت، 151.

22) محمود بوعزّة، استراتيجية التأويل من النصيّة إلى التفكيكية، منشورات الاختلاف- الجزائر- دار الأمان – الرباط، 2011، ص48.

23) طائع الحداوي، سيميائيات التأويل، ص300.

24) علي آيت أوشان، السياق والنص الشعري من البنية إلى القراءة، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط1، 2000، ص62.

25) محمد سعد محمد، علم الدلالة، ص37.

26) سورة **البقرة، الآية:208، 209.**

27) الأزهري، تهذيب اللغة، (سلم)، 548/9.

28) وهم ثعلبة، وابن يامين، وأسد وأسيد ابنا كعب، وسعيد بن عمروٍ، وقيس بن زيد على رأسهم عبد الله بن سلام.

29) محمد حسن عثمان، إعراب القرآن، دار الرسالة: القاهرة، ط1، 2002، 482/1، 483.

30) علي آيت أوشان، السياق والنص الشعري، ص15.

31) المرجع نفسه، ص62.

32) فان دايك، النص والسياق: استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، تر: عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق- المغرب، 2000، ص288.

33) الأصمعي (أبو سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك)، الأصمعيات، تح: أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، ط5، بيروت، لبنان، 1963، ص5.

34) الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر) البيان والتبيين، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، ط7، 1998، 210/3.

35) فان دايك، النص والسياق: استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، تر: عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق،2000، ص256،257.

36) فان دايك، النص والسياق ص 259.

37) محمد نظيف، الحوار وخصائص التفاعل التواصلي: دراسة تطبيقية في اللسانيات التداولية، أفريقيا الشرق، المغرب، 2010، ص9.

38) محمد نظيف، الحوار وخصائص التفاعل التواصلي، ص8، 9.

39) عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغيّر، ص36.

40) عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغيّر، ص59.